**الجمال.. خيط ناظم لتجليات الإسلام**

**السنوسي محمد السنوسي**

**في الطريق لإصلاح الإنسان سلك الإسلام كل سبيل؛ فمرة يخاطبه عن طريق عقله بأن يلفت نظره إلى ما في الكون من براهين مبثوثة دالة على وجود الله سبحانه، وعلى استحقاقه وحده لا شريك له العبادة والتعظيم.**

**ومرة يخاطبه عن طريق روحه بإرشاده إلى ما يزكيها، ويكون سببا في فلاحها وسعادتها في الأولى والآخرة.**

**بجانب ذلك، لم يغفل الإسلام أن للإنسان جسدا له حقوق ومتطلبات؛ فأباح له الطيبات، وحرم عليه الخبائث، وأفسح له مجال الإبداع والاستمتاع.**

**لكن الإسلام في كل ذلك قد غلف توجيهاته وآدابه بإطار من «الجمال»، بحيث يمكن أن يقال إن الجمال خيط ناظم لتجليات الإسلام؛ سواء في عقائده أو عباداته أو أخلاقياته أو تشريعاته.**

**فما الجمال الذي نقصده؟ وهل هو أصيل في المنهج الإسلامي؟ وما سبب الغفلة عنه؟ وكيف يمكن التماسه؟ وما العلاقة بين تجليات الإسلام والجمال؟**

**تعريف الجمال**

**يقال: جمل (بفتح الميم) الشيء، جملا: جمعه عن تفرق. و-الشحم: أذابه. ويقال: جمل (بضم الميم)، جمالا: حسن خلقه. و-حسن خلقه؛ فهو جميل، وهي جميلة (1**

**وجاء في «المفردات»: الجمال: الحسن الكثير، ولذلك ضربان؛ أحدهما: جمال يختص الإنسان به في نفسه أو بدنه أو فعله. والثاني: ما يوصل منه إلى غيره؛ وعلى هذا الوجه ما روي عنه  " صلى الله عليه وسلم"  أنه قال: «إن الله جميل يحب الجمال»؛ تنبيها أنه منه تفيض الخيرات الكثيرة، فيحب من يختص بذلك (2**

**وجاء في «مقاييس اللغة»: «(جمل) الجيم والميم واللام أصلان؛ أحدهما: تجمع وعظم الخلق، والآخر حسن؛ فالأول قولك: أجملت الشيء، وهذه جملة الشيء. وأجملته حصلته. وقال الله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً} (الفرقان:32). ويجوز أن يكون الجمل من هذا: لعظم خلقه.. والأصل الآخر: الجمال، وهو ضد القبح» (3**

**إذن الجمال هو الحسن؛ سواء اتصل بالظاهر والمحسوسات، أو بالباطن والمعنويات. وهو طريق من الطرق الدالة على الله سبحانه وتعالى، إذ نستدل من الخلائق والآثار والصنائع الجميلة البديعة على الخالق المبدع، الذي أحسن كل شيء خلقه وأبدعه وجمله.**

**و«الجمال بوجه عام: صفة تلحظ في الأشياء وتبعث في النفس سرورا ورضا. وبوجه خاص: إحدى القيم الثلاث التي تؤلف مبحث القيم العليا؛ وهي عند المثاليين: صفة قائمة في طبيعة الأشياء؛ وبالتالي هي ثابتة لا تتغير، ويصبح الشيء جميلا في ذاته أو قبيحا في ذاته، بصرف النظر عن ظروف من يصدر الحكم.**

**وعلى العكس من هذا يرى الطبيعيون أن الجمال مصطلح تعارفت عليه مجموعة من الناس متأثرين بظروفهم؛ وبالتالي يكون الحكم بجمال الشيء أو قبحه باختلاف من يصدر الحكم» (4**

**والمفارقة، أن الجانب الفني والجمالي -عموما- رغم أنه من أخطر الجوانب وأعمقها تأثيرا على الفرد والمجتمع، «فإنه لم ينل حظه من العلاج؛ إما تحرجا، وإما خطأ في تقدير قيمته وحيويته، وصريح نسبته الصافية الملتزمة إلى الإسلام» (5**

**وربما تجيء الغفلة عن هذا الجانب المهم من أنه يتعلق بنوع من التحضر ما بعد استيفاء الحاجات الضرورية، وهي ما تسمى في الفقه بالحاجيات والتحسينات.**

**جمال الظاهر والباطن**

**ذكرنا أن الجمال يشمل الحسن في الظاهر والمحسوسات، وفي الباطن والمعنويات؛ وقد أشار أبوحامد الغزالي إلى ذلك، وعاب على من يقصرون الجمال على الجانب الأول، فقال: «اعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون، وكون البياض مشربا بحمرة، وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان، فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار، وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص. وهذا خطأ ظاهر، فإن الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر، ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة، فإنا نقول هذا خط حسن، وهذا صوت حسن، وهذا فرس حسن، بل نقول هذا ثوب حسن، وهذا إناء حسن فأي معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة؟ ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن، والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة، وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح» (6**

**كما أشار الغزالي إلى اختلاف آلية إدراك كل من نوعي الجمال: الحسي والمعنوي، فقال: «واعلم أن كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال، والله تعالى جميل يحب الجمال. ولكن الجمال إن كان بتناسب الخلقة، وصفاء اللون؛ أدرك بحاسة البصر. وإن كان الجمال بالجلال والعظمة، وعلو الرتبة، وحسن الصفات والأخلاق، وإرادة الخيرات لكافة الخلق، وإفاضتها عليهم على الدوام، إلى غير ذلك من الصفات الباطنة؛ أدرك بحاسة القلب» (7**

**الجمال والتوحيد**

**إن أول ما يطالع الباحث عن الجمال في الإسلام هو شمول النظرة الإسلامية شمولا فريدا يجمع في حناياه جمال الخالق والمخلوق (صبغة وطبعا)، وإن شئت فقل: الجمال بطرفيه؛ المطلق والمقيد، أو المحدود واللامحدود (8**

**وبسبب من هذا الشمول الفريد، فقد «قدم المفكر الإسلامي إسماعيل الفاروقي نظريته للفن الإسلامي في ضوء ما وصفه بالفتح المعرفي الإسلامي في علم الجمال، الذي يقوم، أولا وقبل كل شيء، على العلاقة القيمية الحميمة بين «التوحيد» و«الجمال»؛ إذ إن التوحيد هو مبدأ الجمال، وأفقه الإبداعي في الفن الإسلامي» (9**

**ولعلنا نلاحظ أنه قد ورد في حديث نبوي واحد كل تلك المعاني الجامعة التي أشرنا إليها، وهي الجمال بالنسبة للخالق والمخلوق، والجمال فيما يتصل بالظاهر والباطن؛ فقد روى عبدالله ابن مسعود عن النبي  " صلى الله عليه وسلم"  أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال؛ الكبر بطر الحق وغمط الناس» (10**

**فهذا الحديث الشريف ربط بين الذات العلية والجمال، وقرر أن الله «جميل يحب الجمال»؛ حتى أجاز بعض العلماء إدراج «الجميل» ضمن أسماء الله الحسنى؛ قال النووي: «واعلم أن هذا الاسم ورد في هذا الحديث الصحيح ولكنه من أخبار الآحاد، وورد أيضا في حديث الأسماء الحسنى وفى إسناده مقال. والمختار جواز إطلاقه على الله تعالى، ومن العلماء من منعه» (11**

**كما شمل الحديث الشريف نوعي الجمال: الباطن والظاهر؛ فشرع لبس الثياب الحسنة والنعل الحسنة، ونهى عما يفسد جمال الباطن من الكبر، الذي فسره بإنكار الحق واحتقار الناس.**

**وأما قوله  " صلى الله عليه وسلم" : «إن الله جميل يحب الجمال»، فقال فيه النووي: «اختلفوا في معناه؛ فقيل: إن معناه أن كل أمره سبحانه وتعالى حسن جميل، وله الأسماء الحسنى وصفات الجمال والكمال. وقيل: جميل بمعنى مجمل ككريم وسميع بمعنى مكرم ومسمع. وقال الإمام أبوالقاسم القشيري رحمه الله: معناه جليل. وحكى الإمام أبوسليمان الخطابي أنه بمعنى ذي النور والبهجة، أي مالكهما. جميل الأفعال بكم، باللطف والنظر إليكم، يكلفكم اليسير من العمل، ويعين عليه، ويثيب عليه الجزيل، ويشكر عليه» (12**

**الجمال وتجليات الإسلام**

**قلنا في البداية: إن الإسلام قد غلف توجيهاته وآدابه بإطار من «الجمال»، بحيث يمكن أن يقال إن الجمال خيط ناظم لتجليات الإسلام؛ سواء في عقائده أو عباداته أو أخلاقياته أو تشريعاته.**

**فأما عقائده، فإن الإسلام قرر للإله الذي يجب أن نتوجه إليه وحده بالربوبية والعبودية جملة من الصفات والأسماء، هي غاية في الجمال؛ لا من حيث إنها ترسم صورة مادية مزركشة للإله، كما تفعل بعض الفلسفات والمذاهب الضالة، بل من حيث إنها صفات وأسماء تنزه مقام الألوهية عما سواه مما هو خاص بالإنس والجن وغيرهما؛ فالله سبحانه وتعالى كما وصف نفسه في كتابه الكريم: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} (الشورى:11)، و{لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} (الأنعام:103)؛ بل {لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} (الحشر:24**

**< وأما عبادات الإسلام، فجمالها يتبدى فيما تفرضه على المسلم من طهارة الظاهر والباطن، فيجب عليه في الصلاة -مثلا- تطهير الظاهر، بأن يكون البدن والثوب والمكان خالية من النجاسات، بل شرع التطيب والتزين. وتطهير الباطن بأن تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر. وكذا في الزكاة؛ حيث أمرنا القرآن الكريم بقوله: {وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ} (البقرة:267)**

**وأما أخلاقيات الإسلام، فقد بلغت الذروة من الجمال، من حيث إنها دعت إلى مكارم الأخلاق، وإلى العفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة، وإلى معاملة الناس بمثل ما نحب أن يعاملونا به، وإلى التراحم والتواد والتغافر؛ والنصوص في ذلك معروفة واضحة.**

**وقد جمعت هذه الأخلاق في قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} (الأعراف:199). وروي عن جعفر الصادق أنه قال: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها. ووجهوه بأن الأخلاق ثلاثة بحسب القوة الإنسانية: عقلية وشهوية وغضبية؛ فالعقلية الحكمة ومنها الأمر بالمعروف، والشهوية العفة ومنها أخذ العفو، والغضبية الشجاعة ومنها الإعراض عن الجاهلين (14**

**< وأما بالنسبة إلى تشريعات الإسلام، فجمالها مرده إلى أنها وازنت بين المثالية والواقعية؛ فلم تكلف الناس شططا، ولم ترهقهم عسرا، ولم تشق عليهم، بل وازنت في وسطية -هي سمة الإسلام عموما- بين حقوق الفرد والمجتمع، وواجبات كل منهما على الآخر؛ بخلاف مذاهب وفلسفات اشتطت ناحية هذا أو ذاك، فكان الشقاء والشقاق.**

**هكذا يتضح لنا -من خلال هذه الإشارات الموجزة- كيف أن الجمال قيمة مركزية في المنهج الإسلامي، بالنسبة إلى الخالق سبحانه والمخلوقات، والمحسوسات والمعنويات؛ وكيف أنه خيط ناظم لتجليات الإسلام في مختلف صورها وح**